
بحيرة قبر عون - جنوب ليبيا

الصحراء المنسية

تشارلز بودين

ريح قديمة آتية من الأزمنة الغابرة، تُهاجمنا كُثبان الصحراء وسمائها الزرقاء كالجحيم الأبدي، أبهرتنا آفاقها الواسعة ولكن فشلْنا في ملاحظتها بالرغم من أنها واحدة من أعظم السّجلات التاريخية علي وجه الأرض، بقيَ الماضي حيّاً هنا يتحدث إلينا من خلال الرمال والصخور والحرارة والرياح الجافة، يَهمس لنا عن تاريخِ تغيُّر المناخ وعن تقدّم وتراجع الجنس البشري.

يقوم فريق من العلماء بقيادة عالم الآثار البريطاني «**دايفيد ماتنغلي**» بدراسة مشروع «**هجرات الصحراء**» حيث يأخذنا هذا المشروع إلى فترة ما قبل التاريخ.

ويُسافر هؤلاء العُلماء عبر الزمن بإستخدام سيارات الدفع الرّباعي للتّنقل في الصحراء بحثاً عن آثار أسلافنا، يَقهَرون الكُثبان الرملية العالية بعجلات سيارتهم المُفرَغة جزئيا من الهواء، وبذلك فتحوا آفاقا جديدة للتعرُّف على هذه الصحراء.

تقع منطقة فزّان وهي القلب النّابض للصحراء في الجنوب الغربي من ليبيا وهي منطقة مليئة بالغموض ويصعب الوصول إليها وتحاصرك فيها بحار الرّمال والأودية والجبال والهضاب والواحات حُرِثت هذه المنطقة وإزدهرت ما بين سنة 500 قبل الميلاد وسنة 500 بعد الميلاد، حيث كان يُقدّر عدد السكان بنحو 100,000 نسمة وهو عدد ضخم جدا من السكان في أرض قاحلة يُعتبر معدل سقوط الأمطار فيها ضئيلا جدا حيثُ يُقدّر بأقل من 25 ملمتر في السنة وأحيانا لا تسقط لعدة سنوات.

علّق أحد علماء الآثار من جامعة ليستر والذي أصبح أسيرا للصحراء قائلا: «أعمل في ليبيا منذ 30 سنة ولقد دُهِشت منذ البداية بالمناظر الطبيعية فيها» وهي نفس ردة فعل الكثيرين الذين زاروها وأصبحوا مُدمنين علي نورها الساطع وآفاقها الواسعة على أرض يَجدها البعض قَفرا وخرابا ويجدها أخرون صفاء ونقاء.

قام هيو كلابرتون وهو مُستكشف أسكتلندي بالدخول إلي الصحراء الغربية الليبية مابين سنة 1812 وسنة 1825 كَمبعوث من الحكومة البريطانية آنذاك، وفي السابع من نوفمبر من سنة 1824 وبينما كان يَعبر الصحراء القاحلة، وجد إمرأة مُستعبدة تخلّت عنها قافلتها لتموت، كان رأسها مُتورّما بِشكل فظيع وغير قَادرة على المَشي وغير مُدركة لِمَا يدور من حولها، ووجد كلابرتون أحد خَدم القافلة واقفًا بِجوارها ينتظرها حتى تُفارق الحياة، ليس لِيدفنها بعد مماتها بل طمعا في بعض الخِرق البالية التي تَرتديها، لقد تُركت لأنها لا تستطيع أن تركب الجمل وتتمسّك به لشدة ضَعفها، وهو يعرف بأنه سَيهلك إذا تخلّف عن قافلته، هذه هي الصحراء المُخيفة، بحر عديمُ الماء، فقط رمال وصخور، حيث تغزو العقارب وتسعى الأفاعي، ولا ترحمُك شمسُها أبدا، ليبيا كبيرة كقطعة من الشمس بحجم إيطاليا وفرنسا وألمانيا وإسبانيا معا، ولكن مُعظم سكانها البالغ 6 ملايين نسمة يعيشون مجتمعين علي ساحل المتوسط.

ولِفَهم هذه المنطقة علينا أن نُدير ظهورنا إلي البحر وننظر باتجاه الجنوب، حيث تُمثّل الصحراء 95% من مساحة ليبيا منها 20% كثبان رملية، وليس هُناك حتى نهر واحد يجري من خلالها، وقد سُجّلت فيها أعلي درجة حرارة في العالم 36 فهرنهايت، ولكن في نفس الوقت من المُمكن ان ترتجف عظامك من البرد في ليلة شتوية باردة.

يقتبس إبراهيم الكوني وهو روائي ليبي من الطوارق ترعرع في فزان، يقتبس من أغنية صوفية في روايته «نزيف الحجر»:
«الصحراء كنز! مُكافأةٌ لِمن أراد النّجاة مِن أَذي العِباد، فِيها الهناء وفيها الفَناء، فيها المُراد».

تَكشف لنا فزان الاف السنين من كِفاح البشر ضِد التغيّر وقُدرتهم عَلي التّأقلم في بيئة مُعادية، إنها آلة زَمَنٍ يصفعنا الماضي فيها على وجُوهنا وإذا تَوانينا سَوف نَكون عُرضة لخطر حقيقي.

تَقبّلنا نحنُ المُعاصرون علي مُضَض حقيقة أنّ الماضي ما هو الا عبارة عن تغير في المَناخ وهِجراتٍ كبيرة ونُهوض وسقوط أُمم، وبالرغم من ذلك مازلنا نَعتبر أن الحاضر هو الفصل الأخير، ولكن ما أن تُواجه الصحراء سوف تُخبرك بقصَص طويلة عن مدى هشاشة حاضرنا.

أخذت التحقيقات « ديفيد ماتنغلي » إلي بحر الرمال في أوباري، حيث هناك العديد من البُحيرات الجافّة الصّغيرة ذات ألوان الأحجار الكريمة، بعضها بنفسجي والأخر برتقالي، والتي اكتسبتها بسبب المعادن والطحالب، حيثُ يُذكّرك جَفافها بالماضي عِندما كانت المياه الجَوفية قريبة من سطح الأرض.

تُمثّل الصحراء ٪95 من مساحة ليبيا منها ٪20 كثبان رملية، وليس هُناك حتى نهر واحد يجري من خلالها



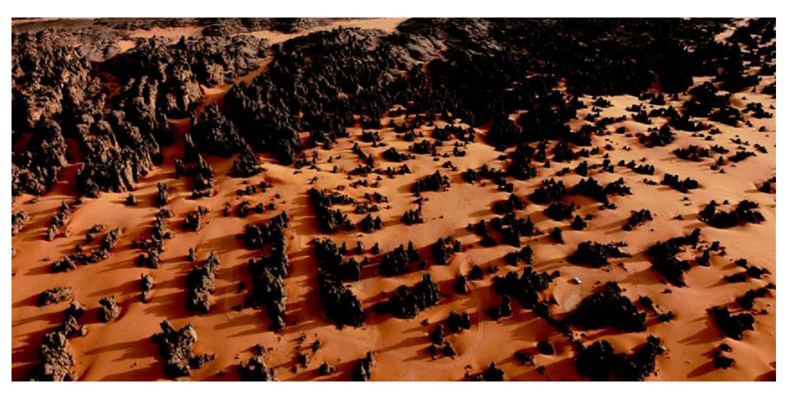


إنَه لَمِن الصعب التخيّل بأن بُحيرة كبيرة بحجم إنجلترا والتي تُسمي « بحيرة فزان العملاقة "تلألأت مياهها قبل حوالي 200□000 سنة مضت، عندما كانت الأمطار غزيرة، وما قنوات المياه القديمة إلا دليل على أن الأنهار شقت قلب الصحراء فيما مضي.

لطالما حدث تغيّر في مَناخ الصحراء، ففي أوقات الجفاف تتضاءل البُحيرات وتختفي النباتات، وعندما ترجع الأمطار للهطول تمتلئ البحيرات وتتحول أجزاء من الصحراء إلى سهول، فتنبُض الصحراء بالحياة وتزدهر المجتمعات البشرية في العصور المطيرة، وتموت الحياة وتتقلص في عصور الجفاف.

كيف يستطيع المرء إيجاد الممرات المائية القديمة؟ للإجابة عن هذا السؤال، قام كيفين وايت ونيك دريك وهم أعضاء من فريق مشروع « هِجرات الصحراء» بإستخدام صُور الرّادار التي التقطت منَ الفَضاء والتي استطاعوا مِن خِلالها أن يرسموا خريطة للرواسب المعدنية للبحيرات والينابيع القديمة، وبِفضل عُلماء المُستحثّات البشرية روبرت فولي ومارتا ميرازون لار استطاعوا أن يكتشفوا في نفس الأماكن العديد من الأدوات الحجرية والنِّصال وأماكن مَواقد النار ومقابر ودلائل أخري تُشير إلى استيطان البشر هذه الأماكن.





كان البشر الأوائل في هذه المنطقة صيّادين وجامِعِي ثِمار وعَاشُوا في سُهولها منذ 130,000 سنة مضت، وغادر هؤلاء البشر المنطقة منذ حوالي 70,000 سنة مضت عندما انحسرت المياه وقلّ هطول الأمطار، ولكنهم عادوا مُجددا ما إن رجعت العصور المَطيرة، ويُطلق على هذه الهجرة ذهابا وعودة مصطلح «مضخة الصحراء» وهي حركة الإنسان ذهابا وعودة كلما تغير المناخ في شمال أفريقيا، فها هي ذكريات الصحراء مَنقوشة على صُخورها تَحكي لنا عن زمن أكثر رطوبة وعن حيوانات اعتمدت على المياه في عيْشها مثل الأسود والأفيال ووحيد القرن.

لكنَّ شيئاً غريباً قد حدث عندما إنتهت أخر مرحلة للعصور المطرة قبل 50000 سنة، فبالرغم من توقُّف الأمطار عن الهُطول واختفاء البُحيرات وتمدّد الصّحراء، بَقي السّكان في أماكنهم، وتشير المنحوتات

واللوحات المرسومة على الصخور بأن الإنسان القديم بالفِعل قام بتحوُّل كبير من عملية الصيد إلي تربية الماشية، ومن ثَمّ تطورت المجتمعات وقامت ببناء المدن والتحول إلى الزراعة.

وهنا ازدهرت الحضارة الجرمنتية في مناخ يُشبه لحَدّ كبير المَناخ الحَالي في الصّحراء، ويَفترض الكثير من العلماء بأن الجِرمنتين كانوا عبارة عن مجموعة من بدو الصحراء، ولكن الحفريّات واعمال المسْح التي قام بها فريق ماتنغلي في عاصمتهم جرمة أثبتت بأنهم شعب مُستقرّ يعيش من الزراعة بالقرب من الواحات، فلقد قاموا ببناء نظام ري مُتطور مَكّنهم من زارعة القَمح والشعير والذُّرة وأشجار النخيل والزيتون، وعن طريق قنوات مائية يبلغ طولها 600 ميل موجودة تحت الأرض وتتغذي من المياه الجوفية تمكّنوا من أن يُوصلوا المياه إلى حُقولهم بدون أن يتبخّر منها شيئ، عمِل هذا النظام بشكل جيد للغاية لمئات السنين ولكن مع بدأ نُضوب المياه الجوفية التي تجمعت في العصور المطيرة انهارت هذه الحضارة.

تَبدو لكَ الصحراء من الوهلة الأولي وكأنها حاجز يقسم أفريقيا الي قطعتين، ولكنها في الواقع تُعتبر مَمراً بالنسبة للبشر الذين عاشوا في ليبيا منذ آلاف السنين، فلقد تم استيراد العاج والذهب والعبيد من جنوب الصحراء، وتمّ استيراد الزجاج والنبيذ وزيت الزيتون ومن حوض المتوسط، لقد كوّنت لنا هذه التجارة صورة راسخة في أذهاننا للقوافل وهي تشُقّ الكُثبان الرملية العالية.

من المُرجّح أن تكون هذه الممرات الصحراوية مكاناً لِعُبور أسلافنا عندما قرّروا مُغادرة الجزء الشرقي من قارة افريقيا للاستيطان في العالم، و يَفترض العُلماء أنّ البشر الأوائل هاجروا خارج الصحراء الأفريقية إلي أوراسيا وذلك إما بِمُحاذاة نهر النيل و من ثّم عبور شبه جزيرة سيناء، أو من خلال عبور البحر الأحمر، و لكن هناك نظرية جديدة تقول بأنه من الممكن أن تكون فزان جزءا مِن مَمر طويل للهجرة قاد الإنسان الحديث إلي شواطي المتوسط، فمن الممكن ان يكون أسلافنا قد إرتحلوا من الأخدود الأفريقي العظيم مُشكّلِين عالمنا الحالي.



